آيزر وأسس نظرية القراءة

لقد أهملت الدراسات النقدية الأدبية لمدة طويلة عنصر القارئ وأهميته في قيام الفعل التواصلي قبل طهور نظرية التلقي. وقد تركز الاهتمام على النص ومرسله، وهُمِّش المرسل إليه، وأهمل طويلاً إذ إن « علامات السارد تبدو لأول وهلة أكثر قابلية للرؤية وأكثر عدداً من علامات القارئ (إن السرد يستعمل في الغالب ضمير المتكلم أكثر مما يستعمل ضمير المخاطب) كما أن علامات القارئ في الواقع هي أكثر مخادعة من علامات السارد...»[1].

وقد عرفنا مع هذه الدراسات القليلة التي أولت الاهتمام بهذا العنصر، الالتباس والخلط في توظيف وتحديد مصطلح القارئ، حيث تداخلت المفاهيم واختلطت الرؤية بين الباحثين، ولم توضع الحدود الفاصلة بين مفهوم المسرود له•والقارئ والمخاطب والمستمع والقارئ المجرد.

ويتبيّن هذا عند رولان بارت الذي يرى أنه " لا يمكن أن يوجد سرد بدون سارد وبدون مستمع أو قارئ "[2]. يتضح أن المستمع أو القارئ يلعبان دور المسرود له في العملية السردية. وتظهر صورة القارئ الخيالي كلما ظهرت صورة السارد، وكلاهما تلازم الأخرى. لكن ذهب " جيرالد برانس " من خلال دراسته غلى تحديد مفهوم المسرود له، وتفريقه عن القارئ حيث يقول:" إن قارئ النص التخيلي، سواء اكان نثراً أم شعراً، ينبغي ألا يُظَن هو

---

[1] ـ رولان بارت، التحليل البنيوي للسرد، تر: حسن بحراوي وآخرون، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، ع: 9/8، المغرب 1988، ص 21,

● لقد أنجز الباحث " علي عبيد " دراسة تحت عنوان " المروي له في الرواية العربية "، وقد أشار إلى إشكالية الخلط والتداخل في المصطلحات، وكذا عدم الاهتمام بهذا العنصر الهام في الإرسالية البشرية بحيث يقول:" لم يحظ المروي له في السرديات بالعناية التي لقيتها سائر أعوان السرد، فما تسنى لنا العثور عليهمن معلومات عند هذا العون قليل جدا لا يزيد عن بعض مقالات تعريفية في الغالب أو إشارات اقتضاها الحديث عن الراوي..."(يراجع علي عبيد، المروي له في الرواية العربية، دار محمد علي، الطبعة الأولى، تونس 2003، ص 9).

[2] ـ رولان بارت، التحليل البنيوي للسرد، ص 21.

المروي عليه. فالأول حقيقي والآخر تخيلي. وإذا ما ظهر أن قارئاً يحمل شبهاً مدهشاً بالمروي عليه، فإن هذا استثناء وليس قاعدة "[3].

وتتحدد هذه المفاهيم، ويضع " جاب لنتفلت " الفروق الدقيقة بينها. ويتبين لنا أن المؤلف الواقعي والقارئ الواقعي يتواجدان خارج النص، بينما ينتمي المؤلف المجرد والقارئ المجرد إلى العمل الأدبي، لكن دون أن يكونا مشخصين فيه مباشرة، لأنهما يعبران عن نفسيهما أبداً بشكل مباشر أو صريح. ويمثل المؤلف المجرد المعنى العميق للعمل الأدبي، أي دلالته الإجمالية، في حين يعمل القارئ المجرد كصورة للمرسل إليه المفترض في العمل الأدبي. ومن جهة ثانية كصورة للمتلقي المثالي القادر على تحقيق المعنى ضمن قراءة فعلية[4].

هكذا إذن، فقد شكل موضوع " القارئ " تناقضات كثيرة، ووجهات نظر مختلفة بين الباحثين حول مسألة تحديده وتبيان وظيفته في العملية التواصلية. وهذا ما حاول أيزر توضيحه من خلال تحديده للقارئ الضمني.

- **القارئ الضمني:**

يدرس " أيزر " مفهوم القارئ الضمني• (lecteur implicite)، ويعتبره أهم الأسس الإجرائية لوصف العلاقة التفاعلية بين النص والقارئ، وهو " بنية نصية تتوقع وجود متلق دون أن تحدده بالضرورة، وهو مفهوم يبني الدور الذي يتخذه كل متلق مسبقاً، وهو ما يصدق حتى حين تعمد النصوص إلى تجاهل متلقيها المحتملأو إقصائه. لذا فالقارئ

---

[3] ـ جيرالد برانس، مقدمة لدراسة المروي عليه، ضمن نقد استجابة القارئ، تر: حسن ناظم، علي حاكم، المجلس الأعلى للثقافة، 1999، ص 54.

[4]- Voir : JaapLintvelt, Essai de Typologie Narrative « le point de vue », Librairie José – corti, Paris 1981, pp : 17 - 27

• يخصص " أيزر " كتاب يحمل نفس الاسم " القارئ الضمني "(theimpliedReader). ويضم مقالاته عن فن القص النثري.

الضمني شبكة من البنى المثيرة للاستجابة، مما يدفع القارئ لفهم النص"[5]. يُفهَم من هذا أن القارئ الضمني• لا يتجسد خارج النص، بل تترسخ جذوره داخل النص، وهو معنى لا يمكن مطابقته تماماً مع القارئ الحقيقي الذي يستحضر أساساً في دراسات تاريخ الاستجابة الجمالية، أي عندما يركز الاهتمام على الطريقة التي يتلقى بها جمهور معيّن من القراء العمل الأدبي. ومهما كانت الأحلام التي قد تصدر على العمل، فإنها ستعكس مختلف توجهات ومواقف ذلك الجمهور ومعاييره، إذ يمكن القول بأن الأدب يعكس القوانين والسَّنن التي توجّه هذه الأحكام. ويتحدد هذا خاصة مع القراء باختلاف فتراتهم التاريخية•، وحقبهم الزمنية، حيث تكون أحكامهم عبارة عن ترجمة مباشرة للمواقف والأذواق التي سادت في مجتمعاتهم[6].

ويضع " أيزر" بالإضافة إلى القارئ المعاصر - وهو الحقيقي والتاريخي مستخلص من الوثائق الموجودة - ما يسميه بالقارئ الافتراضي والمتمثل في القارئ المثالي• الذي هو تخييل محض، وعلى خلا ف القارئ المعاصر فهو كائن تخييلي بحت، فليس له أساس في الواقع[7].

---

[5] ـ فولفجانج أيسر، فعل القراءة، ص 40.

● يشير روبرت هولب إلى أن " أيزر" قد استعار، ونسخ هذا المفهوم عن " واين بوث " في مفهومه للمؤلف الضمني على نحو ما عرضه بتوسع في كتابه " بلاغة الفن القصصي ".(يراجع: روبرت هولب، نظرية التلقي، ص: 136).

ويستنتج " واين بوث " (Waune Booth) بأن:" المؤلف الضمني مختلف دوماً عن الإنسان الحقيقي ـ مهما تكن الصورة التي يمكننا تكوينها عن هذا الأخير ـ لأن الإنسان الحقيقي حين يخلق عمله يخلق ترجمة سامية لشخصه. فكل رواية جديدة تقنعنا بوجود " مؤلف " نؤوله كنوع من " الأنا الثانية " وغالبا ما تكون هذه الأنا الثانية ترجمة خالصة في منتهى الصفاء والجودة، ترجمة لحياة لا يسع أي إنسان أن يحياها. ويتشكل المؤلف الضمني في حين تكوّن عمله الإبداعي، وهو لا يتدخل بطريقة مباشرة وصريحة في عمله كذات متلفظة، بل يمكنه فقط أن يختفي وراء الخطاب الإيديولوجي للسارد الخيالي، ولا يكون المؤلف الضمني في هذه الحالة هو، من يتكلم بل السارد، بالإضافةإلى ذلك يجب أن ندرك أن الموقف الإيديولوجي للمؤلف الضمني حتى في حالة تحدث السارد بلسانه لا يعكسه إلا جزئياً الخطاب الصريح للسارد، مما يعني ضرورة تفادي المطابقة بين هذين المستويين المختلفين في العمل الأدبي " (Voir : Wayne Booth, Distance et point de vue, in poétique du récit, ed du Seuil, 1977, pp 92 - 94).

● يوافق " أيزر" ما ذهب إليه " ياوس " في جماليات التلقي، ويتبيّن ذلك معنا في الفصل الثالث من البحث.

1- يراجع فولفجانج أيسر، فعل القراءة، ص 34.

● يضع أمبرطو إيكو مفهوم " القارئ النموذجي " ويرى أن النص يفترض قارئه كشرط حتمي لتحقيق فعله، وتنشيطه. وبالتالي فهو استراتيجية نصية للمؤلف.(يراجع أمبرطو إيكو، القارئ النموذجي، تر: أحمد بوحسن، مجلة آفاق، ص 141)

[7] ـ فولغانغإيزر، فعل القراءة، ص 34.

ويمثل وضعية تواصلية مستحيلة، لأن القارئ أياً كان، وحتى المؤلف نفسه كقارئ لنصه الخاص، لن يتمكن أبداً من استنفاذ كل الإمكانات الدلالية التي ينطوي عليها النص، وأيضاً لأن معاني النص ودلالاته العميقة لا يمكن أن تتجلى دفعة واحدة، بل تظهر بكيفية انتقائية حسب الأفق التاريخي الذي يحكم تلقي النص وعمليات بناء معناه الكامن في كل مرة، وبالتالي فوصول القارئ إلى التحكم في كل معاني النص الممكنة أقرب إلى المثالية منه إلى الواقع[8]. وبهذا فإن مثالية هذا المفهوم تجعله عاجزاً عن توفير المعطيات الضرورية التي تسمح لنا بفهم الآليات التي تتحقق بها عملية بناء المعنى باعتبارها عملية موضوعية وملموسة تتم بين النص الأدبي والقارئ.

ويبقى أن نتساءل، هنا، عن جدوى إشارة إيزر إلى هذا النوع من القارئ المثالي، وهو متيقن بعدم وجوده من الناحية الموضوعية. كما تفتقد هذه المعطيات التنظيرية إلى التجسيد على مستوى النصوص الأدبية، مما يصعّب الأمور ويعقدها أكثر على الباحث.

ويستعرض هذا الباحث في دراسته للقارئ الضمني• دائماً تصنيفات جديدة من القراء، يحددها النقد الأدبي، ومنها يذكر:

1 -القارئ الفذ:

يمثل القارئ الفذ•(l'archilecteur) عند ريفاتير مجموعة من المخبرين يجتمعون معاً عند نقاط العقدة في النص، ويثبتون بذلك حقيقة أسلوبية من خلال ردود أفعالهم المشتركة، وهو كالعصا التي تشق وتستخدم لاكتشاف المعاني الكامنة المرموزة في النص، و" يفك رموز النص مُتقدِّماً في نفس اتجاه المتوالية اللفظية من اليمين إلى اليسار، ومن

[8] - Voir, W. Iser, l'acte de lecture, pp 62 – 64.

● أجرت الباحثة نبيلة إبراهيم حواراً تسأل فيه إيزر وتقول: من ذا الذي يحكم على النص بصفة عامة ؟ يجيب:" إن الإجابة عن هذا السؤال لا يختلف فيها اثنان، فالذي يقوّم النص هو القارئ المستوعب له. وهذا يعني أن القارئ شريك للمؤلف في تشكيل المعنى. وهو شريك مشروع، لأن النص لم يكتب إلا من أجله "(يراجع نبيلة إبراهيم، فن القص، ص 52).

البداية إلى النهاية، وهو مجموع القراءات، إنه أداة لإظهار منبهات النص وتفكيك سَنن الإرسالية الأدبية "[9].

وموضوع تحليل الأسلوب حسب ريفاتير، هو الوهم الذي يخلقه النص في ذهن القارئ، وهذا الوهم ليس بالطبع خيالاً خالصاً، ولا تصوراً مجانياً، فهو مشروط ببنيات النص وبميثولوجية الجيل أو الطبقة الاجتماعية للقارئ. لكن يبقى أن " القارئ الفذ كمصطلح لجماعة من القراء ليس محصناً ضد الخطأ. ونفس عملية التأكيد على التناقضات التي تتخلل النص تفترض مسبقاً وجود قدرات متباينة، وتتوفق على مدى قرب الجماعة أو بعدها التاريخي عن النص المعنى"[10].ومع ذلك فقد تجاوز هذا المفهوم المقاربات الأسلوبية الكلاسيكية وأنه لم يعد تحديد العناصر الأسلوبية بالاستعانة بأدوات علم اللغة.

2 -القارئ المطلع• (le lecteur informé):

يعرّفه ستانلي فيش بأنه" القارئ المخبر(le lecteur informé) وهو متكلم كفء للغة التي يبنى منها النص.

- المستحوذ تمامً على المعرفة الدلالية التي يحدثها المستمع.. الناضج في أثناء عملية الاستيعاب. وهذا يتضمن المعرفة (أي التجربة باعتبار القارئ منتجاً مستوعباً) بمجوعة من المفردات المعجمية والاحتمالات الانتظامية والعبارات الاصطلاحية والمهنية المحلية الأخرى..

-قارئ يمتلك قدرة أدبية "[11].

●ترجم " بالقارئ المتميز " وهو مجموعة من العارفين الذين يصلون دائماً إلى نقطة معقدة في النص الأدبي(يراجع سامي إسماعيل، جماليات التلقي، ص: 128).

1 ـ مكائيلريفاتير، معايير تحليل الأسلوب، تر: حميد لحمداني، منشورات دراسات سال، الطبعة الأولى، المغرب، 1993، ص: 41 -45. وترجم حميد لحمداني القارئ عند ريفاتير " بالقارئ النموذجي ".

[10] ـ فولفجانج أيسر، فعل القراءة، ص: 36.

●يترجم " بالقارئ غيرالرسمي" (يراجع: روبرلتهولب، نظرية التلقي، ص 137).

[11] ـ ستانلي فيش، الأدب في القارئ: الأسلوبية العاطفية، ضمن: نقد استجابة القارئ، ص 167.

ويذهب هذا الباحث إلى أن القارئ ليس نتاج عملية تجريد ولا قارئاً فعلياً وكائناً حقيقياً، إنما هو قارئ هجين، قارئ حقيقي (أنا) يفعل كل شيء ضمن حدود قدرته ليكون مخبراً." وهذا يعني أنه بمقدوري بشيء من التسويغ، أن أسقط استجاباتي على استجابات القارئ، لأنها تكون قد عدّلت عبر التقييدات التي موضعتها فيّ افتراضات المنهج وإجراءاته وهي: المحاولة الواعية لأن أصبح قارئاً مخبراً، وذلك بأن أجعل عقلي مستودعاً للاستجابات (الكامنة) التي قد يستدعيها نض معيّن، والكبت المرافق بقدر ما يكون ذلك ممكناً، لما هو شخصي وخاص لنظريتي في الاستجابة "[12].

إذن، فهذا الصنف من القراء لا بد أن تكون له القدرة، بل أن يلاحظ ردود أفعاله الخاصة في اثناء عملية التحويل إلى واقع لكي تكون له سيطرة عليها. وقد يدخل هذا المفهوم في ضوء النحو التوليدي التحويلي، إذ يقوم هذا القارئ ببناء النص بنفسه بحيث تتلاحق ردود أفعاله بعضها البعض في الزمن خلال مجرى قراءاته، ومن هذا التسلسل يتولد معنى النص.

3 -القارئ المقصود•(Le lecteur visé):

يسعى " إروين وولف " إلى إعادة بناء صورة القارئ الذي تخيّله المؤلف في ذهنه، إذ يمكن من خلاله إعادة بناء صورة الجمهور الذي رغب المؤلف في مخاطبته. بهذا فالقارئ المقصود باعتباره ساكنا روائياً مقيماً بالنص، يمكن أن يجسد مفاهيم معها بمجرد تصويرها. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا يستطيع القارئ بعد أجيال إدراك معنى النص (معنى ما للنص)[13]، في حين أن هذا النص لم يكن موجهاً إليه أصلا ؟

---

[12] - يراجع المرجع نفسه، ص: 167.

●يترجم " بالقارئ المستهدف " (يراجع: عبدالعزيز طليمات، الواقع الجمالي وآليات إنتاج الواقع عند إيزر، ص 56).

[13]- يراجع فولفجانج إيزر، فعل القراءة، ص:27.

ويعلق إيزر على هذه المفاهيم الثلاثة للقارئ، ويرى أنها " تنطلق كلها من افتراضات متباينة، وتهدف إلى حلول مختلفة. فالقارئ الفذ يمثل مفهوماً اختبارياً يساعد على تأكيد "الحقيقة الأسلوبية " ويشير إلى كثافة في الرسالة الرمزية التي يتضمنها النص... ويمثل القارئ المقصود مفهوماً عن إعادة تصور الميول التاريخية لجمهور القراء الذي كان يستهدفه المؤلف وكشفها. ولكن على الرغم من تنوع المقاصد إلا أن هذه المفاهيم الثلاثة لها سمة مشتركة تميزها جميعاً، ألا وهي أنها جميعاً ترى نفسها وسيلة للسمو "[14].

هكذا، فكل هذه المفاهيم المختلفة للقراء• الحقيقيين والافتراضيين يترتب عنها التضليل وعدم الفهم الحقيقي لمفهوم القارئ، ويقيد دوره ووظيفيته في النص الإبداعي، وينبغي حسب إيزر أن نحرر القارئ ونسمح بوجوده دون أي تحديد مسبق لطبيعته أو موقفه التاريخي. وهنا فقط يتسنى لنا فهم الأعمال الأدبية، وإدراك الاستجابات التي تثيرها، وهذا ما يسميه بالقارئ الضمني، فهو يجسد كل الاستعدادات المسبقة لأي عمل أدبي لكي يمارس تأثيره، وهي استعدادات وميول لم يفرضها واقع تجريبي خارجي بل يفرضها النص ذاته، وبالتالي فالقارئ الضمني تركيب نصي، ولا سبيل إلى الربط بينه وبين أي قارئ حقيقي. وإن القارئ الحقيقي أياً كان نوعه، وكيف ما يمكن أن يكون، فإنه يُسنَد له دائماً دور خاص يقوم به، وهذا الدور هو الذي يشكل مفهوم القارئ الضمني.

ويتحدد هذا المفهوم في جانبين أساسيين متداخلين هما: دور القارئ بوصفه بنية نصية، ودور القارئ باعتباره فعلاً مركباً. وكونه بنية نصية يعمل كل نص أدبي على تجسيد روية للعالم يضعها المؤلف (ولو أنها قد لا تكون رؤيته الخاصة بالضرورة) فهو يننى عالماً خاصاً به يصنعه من المادة المتوفرة له والطريقة التي يتم بها بناء هذا العالم هي التي تأتي

---

[14] ـ فولفجانج إيزر، فعل القراءة، ص:39.

•تجدر الإشارة إلى ما قدّمه سارتر في هذا المجال، إذ يخصص في الفصل الثالث من كتابه للقارئ (لمن نكتب ؟) ويقول:" ما دامت حرية المؤلف وحرية القارئ تبحث كل منهما عن الأخرى، ويتبادلان التأثير فيما بينهما من ثنايا عالم واحد، فمن الممكن أن يقال إن ما يقوم به المؤلف من اختيار لبعض مظاهر العالم هو الذي يحدد القارئ، كما يمكن أن يقال أيضاً أن الكاتب ـ حينما يختار قارئه ـ يفصل بذلك في موضوع كتابه، ولذلك كانت كل الأعمال الفكرية محتوية في نفسها على صورة القارئ الذي كُتبت له " (جان بول سارتر، ما الأدب ؟، تر: محمد غنيمي هلال، ص: 76).

بالرؤية التي يقصدها المؤلف " وتتكون هذه الرؤية في حد ذاتها من رؤى متباينة تحدد معالم رؤية المؤلف وتسمح بالنفاذ إلى ما قُصد للقارئ أن يتصوّره "[15].

وتعتبر الرواية أحسن مثال على ذلك فهي نسق من الرؤى تجسد رؤية المؤلف وهي رؤية السارد والشخوص والحبكة، رؤية القارئ التخييلي، وتتجمع هذه الرؤى تدريجياً عند نقطة التقائها التي تبدأ عندها البنية النصية في التأثير على القارئ وتثير المعطيات المقدمة الصور الذهنية خلال عملية القراءة.

وهكذا، فمفهوم القارئ الضمني بوصفه تعبيراً عن الدور الذي يسنده إليه النص ليس فكرة مجردة مستقاة من قارئ حقيقي، بل هو القوة التحكمية التي تكمن وراء نوع من التوتر الذي يفرزه القارئ الحقيقي حين يقبل الدور المسند إليه "[16]. وينتج عن هذا التوتر من الاختلاف بين أنا كقارئ وبين الذات الثانية المختلفة التي تقوم بواجباتها اليومية كإصلاح الحنفيات، ودفع الفاتورات، وتظهر هذه الأنا الثانية عندما يبدأ فعل القراء، وتنطبق معتقداتها مع معتقدات المؤلف. وبتعبير آخر يختلف المؤلف صورة لنفسه، وصورة أخرى لقرائه، إنه يصنع قارئاً كما يصنع ذاته الثانية والقراءة الناجحة هي التي تستطيع أن تتفق فيها ذات المؤلف والقارئ اتفاقاً تاماً[17].

---

[15] ـ فولفجانج إيزر، فعل القراءة، ص:41.

[16] ـ المرجع نفسه، ص ص: 41، 42.

[17] ـ فشرط التواصل أن تكون بطريقة ما داخل ذهن الآخر لكي تدخل برسالتك إلى ذهنه. وعلى الآخر أن يكون داخل ذهنك. فينبغي لصياغة أي شيء أن يكون لديك آخر وآخرون في ذهنك قبلاً، وهذه هي المغالطة الكبرى التي تكتنف فعل التواصل البشري. وعليه فالتواصل مسألة ذاتية داخلية، فتغدو المشاركة بين الذات والآخر مشاركة داخلية وذاتية معاً..."(يراجع: ولتر أونج: الشفاهية والكتابة، تر: حسين البنا عز الدين، ومحمد عصفور، مجلة عالم المعرفة، الكويت، فيفري 1994، ص ص304 - 305). ويطرح الكاتب فكرة القارئ الضمني بصياغة أخرى، لكن المفهوم العميق هو نفسه.

●إن مفهوم القارئ الضمني يشبه تماماً مفهوم " اللغة " عند سوسير، فهو تجريد يوجه العمل الأدبي ـ بصورة مقصودة أو غير مقصودة ـ وجهة تحقق وظيفة التواصلية (يراجع: ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ص: 148).

● تجدر الإشارة إلى تلك الدراسة التطبيقية التي قدمها " حميد سمير " في النقد العربي عن " صورة المتلقي الضمني " بحيث " يرتبط المتلقي الضمني عنده بأفق انتظار له مقاييس جمالية وأعراف فنية تتراكم عبر أزمنة تاريخية متعاقبة " وفي هذا خلط ولا يتطابق هذا التحديد مع القارئ الضمني مثلما حدده إيزر، بل يتساير مع الاتجاه الذي وضعه روبرت ياوس في جمالية التلقي. (يراجع: حميد سمير، النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2005، ص: 129)

لكن يبقى أن ميول القارئ لا تختفي كلية، بل تصبح خلفية مرجعية يستند إليها في عملية الإدراك والفهم، وحتى وإن فقد الوعي أثناء القراءة بهذه التجارب، لكن حضورها اللاواعي أكيد ومن خلالها يتسنى للقارئ توظيف التجارب المرجعية المختلفة من أجل فهم النص، وهذه وظيفة حيوية لمفهوم القارئ الضمني•.ينبغي أن نشير، هنا، إلى صعوبة تجسيد مفهوم " القارئ الضمني• "- وهو اساس قيام نظرية القراءة - على مستوى التطبيق، خاصة وأن إيزر يم يضع نموذجاً تجسيدياً لكل هذه المفاهيم التنظيرية والتجريدية في الكثير من الأحيان.